الفصل الثامن

إشكاليات تجديد الخطاب الديني الرسمي

(1)

الخطاب الأحادي

إن نظـرة عامة على الخطاب الديني الرسمي في العالم الإسلامي ستكشف أنـه يتعدد و يتنوع في بعـض الجوانب تبعا للمؤسسـات أو الشخصيات التي يصـدر عنها، و يتأثر ترتيبه للأولو يـات والقضايا بعلاقته بالسلطة السياسية التـي تهمش بعـض القضايا أو تمحوها مـن دائرة خطابها الدعـوي الرسمي، بينـما تجعل مـن البعض الآخـر مركزا لخطابهـا، فقضية النقـاب واحتجاب المـرأة عن مجتمعات الرجال حـاضرة في خطاب المملكـة العربية السعودية بوصفهـا واجبا شرعيًا، غائبة عن خطاب دولة مثـل إندونيسيا، قضية الذِّكر الجماعي (مجالس التهليل) حـاضرة في الخطاب الرسمي في بعض الدول منفي بوصفـه بدعة في خطاب دول أخرى.. وتعددية الخطاب لا تعنى تعدد الدين الإسلامـي إلى مجموعة أديان، و إنما تعدد الخطابـات المعرِّفة به تعددية نابعة مـن تنوع الأفكار وطريـق عرضها، وترتيب أولو ياتهـا بالإضافة إلى طبيعة النصـوص الاحتمالية، فمتى كان النص احتـمالي الدلالة، أو احتمالي الثبوت فإنه ينتج اختلافا مشروعا يصبح فيه كل رأي جزءًا من خطاب لا يحق له أن ينفي الخطاب الآخر، أو يدعى لنفسه الامتلاك المطلق للحقيقة.

والإشـكالية ليسـت في تلـك التعددية بـل في تجاهلها والسعـي دوما إلى نفيهـا وترسيخ الخطاب الرسمي لأحادية لا تفسح مجالا للتعريف بالخطابات

الأخـرى وقبولها والتعايش معها، ومثـل تلك الأحادية والشعور بالتمايز عن الآخريـن بامتلاك صحيح الإسلام هو الفكرة الأصيلة في خطاب الجماعات التـي تتمايز هي الأخرى عن الخطـاب الرسمي الذي تصفه بخطاب السلطة وعلماء السلطان بأنها تمتلك الإسلام الحقيقي، فتوظف لصالحها زخم الأحادية الـذي يُروِّج له الخطاب الرسمـي، ويكون الخلط بين الدين وطريقة تقديم الديـن، وبين ممارسة جماعة تبليغ الإسلام وفق اجتهادها وفهمها وبين إسلام الوحي.

الخطـاب الرسمـي لا يُركز على تعدديـة اجتهادية وتأويليـة هي إحدى مرتكـزات التعامل مع النصوص غير المقطـوع بدلالتها، فرغم علم الكاتب أو المتحـدث بتعـدد الآراء في المسألـة أو الحكـم يسكت عن جميـع الآراء، ويتبـنى رأيـا يسوقه للجمهور كأنه الـرأي الوحيد في المسألـة معززًا خطابا دينيـا أحاديا يُقـصى المخالف ويـراه مبتدعـا ومضلِّلا وليس مجتهـدا وهذه إحـدى الإشـكاليات التي تغذى التعصـب الذى يدفـع إلى خطاب متطرف يُنتـج التكفير والإرهاب باسم مواجهة الإلحـاد والكفر، فالجماعات تنطلق في خطابها من قـراءة أحادية لا تعترف بغير قراءتها، يدعمها خطاب دعوي رسمي لا يتبنى تعددية تُجدّد فهم الإسلام، فيصبح الإسلام قراءة خاصة لنص تقدمه الجماعة على أنه النهج الذى انحرف عنه العالم الإسلامي.

ويشعل الخطاب الديـني الأحادي حالة من الصراع والمساجلة الفكرية بـين الحـين والآخـر في قضايا تعـددت آراء القدامـى حولها تبعـا لاختلاف مناهجهم في البحث والدراسة، فمنهجيات المدرسة العقلية الفلسفية تختلف عـن مدرسة الحديث تختلف عن مدرسة الفقه، إلا أنه لا يعتد بذلك فتكتفي

بعـض خطاباته الإقصائية ذات المنهج الانتقـائي بتقديم التراث ككتلة ثابتة ذات رؤيـة واحـدة مخالفها منكر لما عليـه الأمة. على سبيـل المثال مقاضاة ومخاصمـة الدكتور مصطفـى محمود فيلسـوف العامة وأحد ممثـلي المدرسة الفلسفيـة الإسلامية المعـاصرة في جناحها المحافظ لرفضـه تفسير الشفاعة بدلالتها الحرفية الشائعة عند الأشـاعرة والحنابلة، وهو في موقفه ذلك يحذو حذو مدرسـة الاعتزال قديما التي رأت في فهم الحنابلة والأشـاعرة للشفاعة بمعناهـا الحرفي دلالة تتنافى مع العدل الإلهي، ورغم أن مصطفى محمود سبقه في ذلك - كما دافع عن موقفه[1]- شـيخ الأزهـر محمد مصطفى المراغي الذى جعـل الشفاعة بمعنى البشرى في تفسيره، وقريب منه قول ابن تيمية الشفاعة بمعـنى الدعـاء، إلا أن ما كتبه مصطفى محمود عـن الشفاعة أثار عاصفة من الهجـوم وصلـت إلى دعوات لمحاكمتـه وتفسيقه بل وتكفـيره، وهذا نموذج واضـح للإقصـاء مـن خطـاب لصالح خطـاب آخـر، وبعيدا عـن مناقشة مضمون القضية الجـدلي الخلافي، فما طُرح حول فهم الشفاعة قديما وحديثا لا يعدو كونه خطابـات دينية متعددة ينبغي ألا يمارس أحدها دور الإقصاء للخطـاب الآخر أو استعداء السلطة أو الجماهير ضده، أو اتهامه بالفسق أو الكفر، فلا تخلو حالة السجال والإقصاء من تحريض سلطوي وأيديولوجي، وفي خضـم المعارك حول سلامـة العقيدة كمبرر لإقصـاء صاحب الخطاب المختلف تستباح كل الوسائل باسم الدفاع عن الدين، فينشأ الخوف ويترسخ الجمود، ويموت التفكير.

(1) ينظر: د. مصطفى محمود. الشفاعة. ص77:88 دار قطاع الثقافة أخبار اليوم القاهرة. د.ت.ط

إن قبولنا بتعددية خطابنا الإسلامي تخرجنا من حالة المساجلة والمغالبة والإقصاء المستمر مع خطابات أخرى حاضرة فينا و إن زعمنا غيابها أو تغييبها بما يستنزف طاقاتنا و يضعف من محاولة التعايش بيننا، كما أن مثل تلك الأحادية الإقصائية تؤسس لخطاب التطرف القائم على نبذ الحوار وتبنِّي العنف، وجعْل الأفكار الإنسانية لها قداسة العقائد، فعمليات التفجير المتكررة في عالمنا ليست مواد متفجرة سريعة الاشتعال بل خطاب فكري أحادي رآه بعض الشباب دينًا مقدسًا يستحق الموت من أجله، ولن يخرجنا من ذلك إلا قبول تعددية في الخطاب الإسلامي تُثمِّن الثابت المشترك، وتتجاوز عن المختلف بشأنه، تعددية نوعية تُثرى الفكر، و يتسع بها خيارات المسلمين فعلا وتركًا.

يظن البعض أنه بإمكانه توحيد الخطابات الإسلامية في خطابه، وأن تلك الأحادية ضرورية لتوحيد المسلمين على فهم الإسلام، متجاهلا طبيعة النصوص الاحتمالية، والسياقات الخارجية الموجّهة لقراءات النصوص، والقدرات العقلية المتفاوتة في التعامل مع النصوص، وطبيعة اللغة ذات الدلالات المتعددة أحيانا، فيسعى إلى تجاهل تلك التعددية التي يعج بها الفضاء الثقافي للعالم الإسلامي، ومتناسيا الطبيعة الحوارية للقرآن الكريم التي رسخت لما هو أعمق اختلافا وأشد تباعدا من التعدد داخل الخطاب الإسلامي إلى تعدد دين عقائدي بين البشر مكفول بالنص القرآني ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون: 6] فإذا كان القرآن الكريم صان اختلافا عقائديا في حياة البشر فكيف نمنع تعددية داخل بنية الخطاب الديني الواحد ظنا منا أن ذلك يتنافى مع وحدة المسلمين أو ينقص من صلابة الخطاب الإسلامي.

ترسيخ تعددية الخطاب الإسلامي تتطلب خلق حالة من الوعي العام أن

الخطابـات القائمة على الاستدلال النقلي فقط، أو المنطلقة من العقل في قراءة النقل تتساوى من حيث كونها خطابًا، ليس من حق أحدها أن يزعم امتلاك الحقيقـة، و إن سيطر أحدها بفعل علاقتـه بالسلطة السياسية وأمكنه بذلك إقصاء الخطاب الآخر و إخراجه من دائرة الضوء.

وتحتـاج التعدديـة مـن الخطـاب الديـني الرسمـي المعاصر التحـوّل من المتحـدث الواحد الفوقي في جمهور من المتلقين إلى المحاور الذي يتفاعل مع طـرف آخر هـو الجمهور المشـارك في تكوين الخطاب؛ لـذا نحن في حاجة إلى تطوير وسائل التواصل، وتفعيـل الحوار الداخلي في المؤسسات الدعوية والتثقيفيـة والتعليميـة، ومواقـع التواصل الاجتماعـي، لنعـزّز ثقافة قبول التنـوع والاختلاف لمواجهة ثقافـة الانفعال والصخـب والجلبة. إن كتاب الدعـوة «القرآن الكريـم» لم يعرف صوتا أحاديا، بـل خطابات حاور فيه اللـه عَزَّوَجَلَّ الشيطان في علة عصيانه، وحكى في مواضيع كثيرة حوار الأنبياء مع أقوامهم، وكأن القرآن الكريم يريد أن يرسخ في الوجدان المسلم الطبيعة الحواريـة التي تطلـب ثنائية يتبادل فيها الطرفـان دور المستمع والمتحدث، وسط حالة من الاستماع الجيد، والحديث المبنى على الحجة والمنطق والدليل على أرضية من التسليم باحتماليـة الصواب والخطأ، ونسبية الطرح الإنساني في التعامل مع النصوص فهما و إدراكا.. وكما صوّر القرآن الكريم الأنبياء في حالة حوار حتى اللحظة الأخيرة مهما كانت قوة الصدام، واحتدام الصراع، صـوَّر طبيعة الخطاب الشيطاني القائم على الصخب والجلبة والتشويش على الأفكار بإثارة الانفعالات ﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ [الإسراء: 64]؛ أي منطلق في خطابنا علينا أن نسلك حواري عقلاني يقبل التعددية، أم حوار انفعالي تشويشي يحرض على الصدام!